(٦)
تحت مستوى الجهل*

أعتقد أن أحدا لن يغضب إذا قلت إن مصر من أفقر بلاد الله تعالى ، فهذه حقيقة تعرفها الدنيا كلها ، ويعرفها كل من يبحثون عن الحقائق ويجدون الشجاعة على مواجهتها ، ويعتبرون هذه المواجهة الخطوة الأولى للنهوض بهذا البلد من التاعب التى يعانيها ، أو من بعضها على الأقل.

والكثيرون جدا من رجال الإدارة ، خاصة أولئك الذين لا يعرفون عن الإدارة شيئا ، الوظيفة عندهم درجة مالية ومكتب وغرفة وسكرتارية ومنظر وكلام بدون عمل.

أما الذين يؤمنون بالعمل ويحبون هذا البلد ، فيعرفون أن هذه حقيقة ، فنحن بلد يتخطى الخمسين مليونا من البشر ، والزيادة مستمرة دون حساب. ومن هؤلاء الملايين لا أقل من عشرين مليونا فى حالة فقر مدقع يعانون فى حياتهم من الآلام ما لا تعرف كيف يتحملونه ، فإن أرزاقهم قليلة جدا ، ولا يعينهم على البقاء إلا أن الخبز ميسر فى هذا البلد ، وإذا لم يكن لديهم المال الكافى لشراء حاجتهم من الخبز ، فإن الناس فى بلادنا فيهم كرم وإنسانية ، خاصة بالخبز ، وفى بلدنا لا يموت أحد من الجوع ، ولا ينام كما يقولون بدون عشاء ، إنما الخلاف على العشاء ، فالقليلون جدا من أبناء وطننا يتناولون عشاء ممتازا أو طيبا أو كافيا ، ولكن الملايين لا يحصلون إلا على الخبز القفار أو يجمعون طعامهم من أكوام الزبالة ، وفى أحياء القاهرة الفقيرة وفى قرى الريف كثيرون جدا يملأون بطونهم بأى شىء لكى يستطيعوا النوم.

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٧م .

وعدد كبير جدا يعانون الفقر البالغ بسبب الجهل البالغ ، وإن كانت لهم موارد فمع مواردهم القليلة نجدهم يتزوجون دون تفكير أو تدبير ، وهم ينجبون أطفالا دون حساب ، وكلنا نعرف هذا الطراز من فقراء بلدنا الذين يعيشون فى الشارع فى ظلال الحيطان ، ومعهم أطفال فى الغالب كثيرون يعيشون من الهواء ، وأنا طول حياتى أرى هذا الطراز من المواطنين ويفيض قلبى حزنا عليهم ، ولكنهم هم أنفسهم لا يحزنون ولا يحسون ، فهم يعيشون كأنهم قطط تعودت على العيش دون قلب أو تفكير.

والغريب جدا أن بعض أولئك الفقراء جدا يتدللون على الرزق أى أن الغفلة عن شئون الحياة ومطالبها تجعلهم لا يهتمون حتى بالرزق ، لأنهم واثقون من أنهم لن يموتوا جوعا ، ونحن الذين نعرف صراع الحياة ونقضى أعمارنا فى الكفاح فى سبيل العيش الكريم ، لا نصدق ما يفعله أولئك الناس ، ومن أمثلة أولئك الناس رجل فقير مدقع كان يأتينى مرة فى الأسبوع ليعين على نظافة البيت. وكان يقضى عندى ساعتين أو ساعتين ونصفا ويتقاضى عشرة جنيهات ، وهو مبلغ لا بأس به ، يكفى حاجاته لمدة يوم على الأقل ، ولكنه أكثر من مرة يهمل المجىء لمجرد أنه كسول أو لا مزاج له ، وأول مرة تغيب فيها قلقت عليه ، وكان بيته فى طريق عملى ، فمررت به لكى أطمئن عليه ، فوجدته جالسا مع صاحب له إسكافى يشرب الشاى ، فسألته عن سبب عدم قدومه فقال دون اكتراث: لا تؤاخذنى.. لقد وجدت نفسى كسلانا اليوم.. لم يكن عندى مزاج.. آتيك غدا إن شاء الله.. بهذه البساطة يترك هذا الرجل عشرة جنيهات كانت فى متناول يده ، وهذا مثال من أمثلة الجهل المركب الذى يتصف به أولئك الناس.. فإن الجهل العادى هو خلاء الذهن من المعلومات ، المكان الذى تحتفظ فيه بالمعلومات فى ذهنك تجده خاليا عند أولئك الناس.

ولكن أصحاب الجهل المركب فى مصر لا يكون ذهنهم خاليا بل مليئا بمعلومات خاطئة أو ضارة.

ولكى تعلم الواحد منهم شيئا ، يجب أولا أن تفرغ ذهنه وتنظفه من هذه البلاوى التى تملؤه. وأسوأ هذه البلاوى هى الخرافات التى يؤمنون بها، وأولها أن الإنسان مهما فعل فهو لن يستطيع - ولا يجوز له - أن يغير ما كتب عليه. فالعلم لا قيمة له ، والعلاج بالطب لا ينفع ، والعقاقير والوصفات البلدية هى الطب ، وعلى الإنسان أن يترك نفسه بين يدى الأقدار تعمل به ما تشاء ، فإنه لن يستطيع أن يغير شيئا مهما فعل. لهذا نجد الواحد منهم ينزل إلى ماء الترعة الموبوء بالبلهارسيا ويستحم فيه ويقول: هل تصدق ما يقولونه لك من أن البلهارسيا تأتى من هذه المياه؟ وهل معقول أن الله سبحانه يخلق ماء موبوءا؟ تعال يا شيخ ولا يهمك ، وما كتب عليك لابد أن يكون ، وهل تظن أنك إذا لم تنزل الماء فإنك لن تمرض؟ كلام فارغ!..

وهذا الطراز من الجهل المركب الشرير يرثه أولئك الناس من بيوتهم ، ويؤكده فى أذهانهم شيوخ مشعوذون ممن يلوذون بمن يسمونهم الأولياء والصالحين ، وهؤلاء المشعوذون أجهل من الناس ، ولكنهم مكارون لؤماء ، وهم لهذا يسيطرون على أذهان أولئك الناس ويملأون أذهانهم بأمثال بلدية كلها جهل وخرافات.

وتلك هى مشكلة الجهل الكبرى فى مصر. إنه جهل مركب معقد. إنه جهل إيجابى فعال وضار! وانظر إلى الأحياء البلدية وأكوام الأطفال والأولاد فيها. مهما قلت لهم فهم لن يتوقفوا عن الإنجاب أبدا. وما رأيت مشهدا من مشاهد الفقرة التليفزيونية المسماة «ريبورتاج» إلا أذهلتنى كثرة الأولاد فيها. لا يمكن أن يقل عدد الأولاد فى كل عائلة عن ستة أو سبعة.

وهؤلاء الأولاد يبدون فى العادة كالعفاريت ، لأن أحدا فى الحقيقة لا يربيهم ، وكلهم يذهبون إلى المدارس ، وهناك لا يتعلمون إلا القراءة

والكتابة على الأكثر ، لأن الولد لا يتعلم إلا إذا كان معه أمه وأبوه يشاركان فى عملية التعليم. أما الاحتشاد فى المدرسة عددا من الساعات فى اليوم ثم العودة إلى البيت وإلقاء الكتب فى ركن من أركان البيت إلى اليوم التالى والانقضاض على موائد الطعام يلتهمون كل شىء ، واللعب فى الطريق بعد الظهر والمساء ، وأحيانا بالليل ، فلن يخرج متعلمين أبدا. وهؤلاء هم فواقد التعليم. هؤلاء هم الذين يقضون فى كل فصل ثلاث أو أربع سنوات ثم يخرجون فى النهاية بلا شىء ، غاية ما يبلغونه - إذا بلغوا شيئا - هو الابتدائية ، وأحيانًا قليلة جدًا الإعدادية. أما الذين يفلتون منهم إلى الثانوى والجامعة فهؤلاء كوارث ، هؤلاء هم الذين يعطونك أمثلة الخريجين الذين يسيئون التصرف فى كل وظيفة يتولونها.

هؤلاء هم الفقراء الأبديون. هؤلاء هم فقراء اليوم والغد. هؤلاء هم الذين يملأون أحياء كاملة كاملة من القاهرة ومدن مصر وقراها ، هؤلاء هم كارثة مصر الكبرى ، هؤلاء هم أساس التأخر الذى تعانى منه بلادنا ، هؤلاء هم الذين يخرجون فى مصر كل جديد وجميل ، هؤلاء هم الذين أرادوا أن يخربوا مترو الأنفاق من أول يوم لأنه شىء رفيه وتقدمى وجميل وهم لا يحبون أى شىء من هذا الطراز بسبب جهلهم العميق الإيجابى المعقد.

وإذا نحن أردنا أن نعالج مآسى مصر القومية والحضارية ونخرج بها من كهوف التأخر ، فعلينا أن نواجه مشاكل هؤلاء مواجهة علمية شجاعة مدروسة ، لأن التعليم فى المدارس بالطريقة التى نسير نحن عليها اليوم لا يجدى معهم ، ومن التليفزيون لا يرون إلا الإعلانات والمسلسلات ، أما إذا كانت هناك مواد ثقافية أو فكرية فهذه لا تعنيهم فى شىء لأن الجهل هنا جهل عميق متين. وهو معشش فى الأذهان متمكن منها ، ولابد من طريقة ما للتخلص منه - أو تخفيف مضاره على الأقل - إذا كنا نريد لهذا البلد أى خير حقيقى.

والسبب فى فشلنا أمام أولئك الناس هو أننا نحاول النهوض بهم بالأساليب التقليدية: التعليم فى المدارس ، وقد فشلت المدارس معهم ، وأنا من بين أولئك الناس الذين بذلوا معظم أعمارهم فى مسائل التعليم ، ولم أتبين خطورة هذه المشكلة واستحالة الوصول إلى حل لها بالطرق العادية إلا فى السنوات الأخيرة..

والذى لفت نظرى إلى الطابع الخاص لأولئك الناس هم - بصفة خاصة - الشغالون وبعض العمال والفلاحين ، ومن شهور قليلة كنا نقترب بالسيارة من مبنى هيئة الكتاب على كورنيش النيل ، ومن خلفنا جاءت سيارة أوتوبيس منطلقة فى طريقها كالسهم المارق ويد السائق على الكلاكس يملأ به الجو ضجيجًا. والمنظر كان مفزعًا حقًا ، وقد سلم الله فانزوينا إلى طرف الشارع الأيمن ومرت السيارة الضخمة من جوارنا ، وقال لى صاحب سيارتنا - وكان يقودها - إن السائق الشيطان كان يضحك كأنه يلعب بالأتوبيس الرهيب وبأرواح الناس. ولم تنقض لحظات حتى وقعت الكارثة، فإن الأوتوبيس صدم سيارة نقل محملة آتية من الناحية الأخرى، ومات فى الكارثة سائق عربة النقل وتحطمت سيارته ، ومات ثلاثة من ركاب الأوتوبيس وجرح نحو عشرين.

واستفزنى المشهد المفجع فاقتربنا بسيارة صديقى حتى أصبح مشهد الحادث كله على مرأى منا. رأيت سائق سيارة الأوتوبيس ينزل بين يدى البوليس الذى تجمع عند الحادث كما هى العادة ، هذا الشيطان لم يصب إلا فى أنفه وركبته ، وكان الدم يسيل ورأيته يستغيث ويطلب لنفسه الإسعاف ، وبعد أن اطمأن إلى سلامة نفسه جلس على الأرض ثم انبطح على ظهره وتصنع الإغماء ظنًا منه أن هذا ينجيه من المسئولية. ولكن هذه الحيلة لم تنطل على واحد من ضباط البوليس شهد هذا الحادث واشترك فى عمليات الشرطة الخاصة به.. وانتظر الضابط حتى قام المرضون

بتضميد أنف السائق وركبته ، فلما فرغوا أمره الضابط بالنهوض ، فلما تمادى فى تصنع الإغماء لطمه على وجهه فأفاق ، ثم جبذه من يده فأقعده. وإلى أن تتخذ الشرطة إجراءاتها لإحالة هذا الرجل إلى النيابة سمعته يقول:

– نيابة إيه يا حضرة الضابط؟ ده قدر.. ربنا عاوز كده؟!..

– لقد مات أربعة فى هذا الحادث وجرح فوق العشرين بسببك!..

– بسببى أنا؟ هذا أمر الله يا حضرة الضابط ربنا عاوز كده. مش كفاية اللى جرالى؟ اعملوا معروف سيبونى أروح لأولادى ، إننى أجرى على سبعة وأمهم..

وصاح فيه بعض الركاب: ألم تكن تجرى كالمجنون بالسيارة وتضحك؟ ألم نقل لك بدل المرة مرات أن تهدئ السرعة وتتعقل؟ أنت مجرم ومسئول عن كل ما جرى ، أنت تستحق قطع رقبتك..

والرجل تصنع البكاء وجعل يقول للضابط: مظلوم يا سعادة البيه ، والله مظلوم ، والله كنت أسوق بغاية العقل والمسئول هو سائق الكاميرون.. هؤلاء كلهم كذابون يا حضرة الضابط.. ارفقوا بعيالى يرحمكم الله ، وهذه إرادة الله سبعة وأمهم من يطعمهم؟

انتهى ما شهدته وسمعته من هذا المنظر الرهيب.

وقد فكرت فيه طويلاً بعد ذلك ، فهو لم يكن حادثًا مفردًا ، بل مأساة تتكرر كل يوم.. وهذا السائق دون شك من أبناء هذه الطبقة الجاهلة جهلاً معقدًا مركبًا.. ومنظر وجهه ممسوح سخيف لا يحمل أى معنى يتوسطه شارب كأنه ذيل غراب.

وليس فى وجه هذا الرجل أى شعور بالمسئولية ولا أنا أحسست فيه بشىء من الألم ، لقد قاد الحافلة الضخمة قيادة المجنون وجرى بها بضحك ويضرب «الزمارة» كأنه طفل وهو لابد يفعل ذلك دائمًا.

وهو عندما ينطلق بالسيارة يشعر كأنه طفل بيده لعبة ، وعندما تجرى السيارة والكلاكس تحت إصبعه يسعد إذ يرى الناس يقفزون يمنة ويسرة هربا من الموت ، وأنه ليس مواطنا مثلى ومثلك ، إن أحدا لم يعلمه شيئا فهو تربية شوارع حصل على الإعدادية ثم تعلم قيادة السيارات واشتغل سواقا وقدروا له راتبا كبيرا لم يجتهد فى تحسين حاله أو رفع مستواه ، إنما العمل الوحيد الذى عمله هو أنه تزوج وأخذ ينجب حتى أصبح أولاده سبعة والبقية تأتى ، لقد قتل ثلاثة وجرح فوق العشرين ولكنه لم يشعر بأية مسئولية عما فعل لأن الشعور بالمسئولية ينشأ عن التربية والتكوين ، ورغم كل ما فعل لا يزال يتصور أن من الممكن أن يخلوا سراحه دون أى عقاب ، فالذى حدث قضاء وقدر ولا دخل له فيه ، ربنا عاوز كده ، وهل يستطيع مخلوق أن يعترض على قدرة الله سبحانه وتعالى؟

بهذا التركيب العقلى والنفسى لا يمكن أن يكون مثل هذا الإنسان مواطنا نافعا لنفسه أو وطنه ، إن شيئًا فى الدنيا لا يربطه بى أو بك ، فنحن مرتبطون بهذا البلد ، نحن نشعر أننا مواطنون مسئولون عن الوطن والمواطنين ، لأننا نعرف أننا لا يمكن أن نكون سعداء ما لم يكن بقية المواطنين سعداء ، أما هو فلا يشعر ، تلك هى المشكلة التى أريد أن أعرضها فى هذا المقال لأنها ليست مشكلة أفراد ، بل هى مشكلة قطاع عريض جدا من هذا الشعب يبلغ الملايين الكثيرة ، ونحن لا نستطيع أن ننهض بوطننا إلا إذا أنهضنا معنا هذا القطاع الضخم من المواطنين.

لكى أصور لك المسافة التى تفصل بيننا وبينهم أصف لك زيارة قمت بها إلى محل من محلات صنع حلوى مولد النبى ، نحن نعرف أن هذه

الحلوى تقليد قومى يقبل عليه كثيرون من مواطنينا فى مناسبته ، ففى المولد النبوى الشريف يقبل الملايين على شراء أصناف من الحلوى الحمصية والسمسمية وما إليها لأولادهم، هذا إلى جانب لعب من الحلوى خاصة العروسة والحصان.. وهذه الحلوى كلها يأكلها الأولاد ، وأحيانا بكميات كبيرة ، أتيحت لى الفرصة مرة لكى أزور واحدا من مصانعها فى حارة صغيرة من حوارى حى بلدى ، لا يمكنك أن تتصور مستوى القذارة التى يعمل بها أولئك الناس ، إنهم يعملون حلوى يأكلها أطفال ، ولكن ليست لديهم أبسط فكرة عن النظافة أو أهميتها بالنسبة لحياة الأطفال لأنهم فى غاية القذارة وأيديهم لا يمكن أن تغسل ومحلول السكر أو العسل يصب فى صفائح غير قويمة علاها الصدأ ، وهم يتركون السكر المحلول فيها مكشوفا والذباب يحط ويشيل ، والمنضدة التى يعجنون عليها الحلوى فى قذارة أرض الشارع ، والقوالب التى يصبون فيها العرائس والأحصنة لا يمكن أن تكون قد غسلت ، والسجائر فى أفواههم والرماد يسقط على الحلوى وكل شىء يصنعونه يلفونه فى ورق سلوفان لكى يحتفظ بقذارته ! إذا رأيتهم يعملون مرة فلن تفكر قط فى أن تأكل من حلاوة المولد ، لا يمكن أن يخطر ببالك أن تشترى لابنتك عروسة مولد.

هؤلاء الناس ألا يعرفون النظافة؟

بلى يعرفونها ، ملابسهم التى يلبسونها بعد العمل نظيفة مغسولة ، ولكن الذى لا يعترفون به هو العلاقة بين النظافة والصحة ، مهما قلت لهم فإنهم لا يوافقونك على أن الذباب يجلب الأمراض ، فى رءوسهم أحجار من ثقافة قديمة عتيقة تقول دائمًا يا شيخ خليها على الله ولا تصدق ما يقولون لك ، إذا كان مقدرا لك أن تمرض فستمرض بالذباب أو بغير الذباب ، ومن عاش بالحكمة مات بها ، خلها على الله وتوكل ، وهؤلاء الناس يعرفون الفضيلة والصدق ، ولكن بالكلام فقط ، ليس أسهل

عليهم من الكذب ، ليس أهون عليهم من اليمين الكاذبة وهم طول النهار يحلفون بالطلاق دون أن يقيموا وزنا لليمين.

□□□

هؤلاء الناس الذين يؤسفنا أن نقول إنهم يعيشون تحت مستوى الجهل وخارج حدود الإنسانية ، هم مع الأسف مواطنون ، ونحن مسئولون عنهم، ومن سوء الحظ أنهم من أكثر الناس أولادا وأكثرهم استهلاكا وهم كذلك الذين يفسدون المرافق ويحطمون عربات سكة الحديد ويخربون الأوتوبيس.

ماذا نفعل لكى نصل إلى أولئك الناس ونصلح أحوالهم؟

مشكلة عويصة فعلاً فلا سبيل لنا إليهم ، إنهم يعيشون فى عالم وحدهم، مهما قلنا فهم لن يسمعوا لنا.

هذه المشكلة قائمة فى العالم الثالث كله ، بل هم سبب وجود العالم الثالث وتأخره: المواطنون الذين يعيشون تحت مستوى الجهل وخارج حدود الإنسانية.

هذه المشكلة كانت أيضا موجودة فى روسيا قبل الثورة الشيوعية ، ولينين وستالين عالجا المشكلة بأساليب غير إنسانية تتلخص فى الإبادة ، إن مساحة روسيا شاسعة جدا، هؤلاء الجبابرة أخرجوا من مدن روسيا ملايين من البشر من هذا الطراز والقوا بهم فى وسط آسيا وسيبريا دون رحمة ، يقال إن الذين بادوا من الروس بهذه الطريقة يبلغون خمسين مليونًا ، وإذا أضفنا إليهم من هلك من الفلاحين أصبحوا مائة مليون ، جوربا تشوف والروس المعاصرون يقولون إنه عمل يؤسف له ، ولكنهم يقولون إنه لولا ذلك لما نهضت روسيا.

نحن لا نستطيع ذلك ولا نقبله.

لنفكر معا.. كيف نعالج مشكلة ما تحت الجهل وخارج الإنسانية ، لابد من حل إذا كان لابد أن تنهض مصر!!